انحراف دلالة جمل القرآن الكريم والحديث النبوي في الخطاب الديني المعاصر

د٠ أحمد عبد الله أحمد نصير (*)

توطـــئـــة:

الخطاب الدينى في البلاد الإسلامية يمثل الأساس القوي لتكوين الثقافة الإسلامية العامة للمسلم؛ لأن الخطيب – بما يتبناه من أفكار ومعتقدات – يؤثر في توجُّـــهَات مستمعيه الفكرية تأثيرًا كبيرًا، من هنا صار الخطاب الديني المغلوط الذي يمارسه معظم الخطباء والوعاظ في العصر الحديث يؤثر بشكل منهجي على وعي المسلم بحقائق الخطاب القرآني الأساسي الراجع إلى سياقات خاصة قصدها الرب سبحانه وتعالى.

وأعني بالخطاب المغلوط: ما يقوم به الخطباء– في العصر الحاضر– من اجتزاء أو اقتطاع الآيات أو التراكيب القرآنية من سياقاتها ومن دلالاتها القرآنية المقصودة؛ لاستخدامها بخلاف سياقها الداخلى فى النص القرآني، فيأتي الخطاب الديني على غير ما قصده الله تعالى، وهذا الفعل الخاطئ يتم في الخطاب الديني المعاصر بصورة ملموسة، فمعظم خطباء هذا العصر اقتطعوا الآيات من سياقها– عن عمد – واستخدموها في غير مقاصدها، وانتزعوا جملا من الأحاديث النبوية وفصلوها عن سياقها، فأنزلوا آيات الكافرين على المؤمنين لتكفير بعض الناس، وانتزعوا آيات الربا من سياقها القرآنى لينزلوا اللعنات على المقترض المحتاج وينذرونه بحرب من الله ورسوله، وانتزعوا جُمَلًا من

(*) أستاذ علم اللغة المساعد بكلية الآداب جامعة السويس.

الأحاديث النبوية من سياقها، فأظهروا نبي الرحمة محمدًا صلى الله عليه وسلم نبيًّا فظًّا، غليظ القلب، يحضُّ على القتل وسفك الدماء.

وقد لا يكون اقتطاع الآيات من سياقها عن عمد، بل قد يكون عن جهل، والنتيجة كارثية أيضا، فالذين يخوضون فى النصوص القرآنية دون امتلاك أدوات العلم الشرعي-كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والسياق اللغوي والتاريخي الذى قيلت فيه النصوص القرآنية- إنما يشوهون الدين أيَّــما تشويه؛ لأنهم يتوجهون إلى النصوص الصحيحة فيقتطعونها من سياقها اللغوى ويفصلونها عن زمن ورودها وأسباب نزولها، ومن المعلوم أن ارتباط النص بسياقه ومعرفة سبب نزوله من أهم أدوات فهم المراد من النص، لذا، حين ينتزع أؤلئك الخطباء بعض النصوص من سياقها، جهلًا أو عمدًا، لا سيما تلك النصوص المتعلقة بقتال المشركين، فإنهم بذلك يظهرون دينَ الإسلام دينًا دمويًّا، لا علاقة له بالسلم أو الرحمة، اللتين هما من أبرز دعائم شريعة الإسلام، ويُصبح المخاطَب أو المتلقي أمام شرعٍ متناقضٍ فى أحكامه وتوجهاته، وحاشا الإسلام أن يكون كذلك، فالإسلام هو الدين الذي يدعونا إلى السلام ويُعَظِّم من شأن الدماء، ويُسَوِّى في الإثم بين قتل النفس الواحدة وقتل الناس جميعًا، ويُبَيِّن أنَّ إحياء نفس واحدة يعدل إحياء النفوس جميعا، والكارثة الكبرى التي تترتب على جَمْع آيات القتال فى القرآن الكريم مقتطعة عن سياقها ومفصولة عنه هي أن المتلقي قد يفهم منها أن الإسلام يحض دائما على قتال المشركين، وقد يترتب على هذا الفهم جواز قتل الكثير منهم، وربما قتلهم أجمعين استنادًا إلى نصوص دينية بَدَت- بعد بَتْرِها مِنْ سِياقها – صريحةً فى الحَثِّ على القتل، وهذا لا يقول به إلا مغرض أو جاهل ينقضه الفهم الصحيح لشريعة الإسلام السمحة المنضبطة في التصرفات والمعاملات.

وما يترتب على اقتطاع الآيات القرآنية من سياقها هو نفس ما يترتب على اقتطاع الأحاديث النبوية من سياقها، فعندما يتم بَتْرُ جُمَلٍ معينة من الأحاديث النبوية وفصلها عن سياقها، حينئذ قد يفهم المتلقي منها أن محمدًا ليس نبي الرحمة ولا داعيا إليها ولا داعيا إلى أي أدب من الآداب السامية، وقد يترتب على هذا الفهم المغلوط أمورٌ منكرة، لا ترضي الله ولا رسوله، كجواز قتل الناس استنادًا إلى نصوص نبوية بَدَت- بعد بَتْرِها مِنْ سِياقها – صريحةً فى الحَثِّ على القتل، وهذا أيضا لا يقول به إلا حاقد أو جاهل لا يفهم أخلاق رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم فهما صحيحا.

وقد أثارني إهدار نظرية السياق في الخطاب الديني المعاصر، فقمت بتتبع أخطر مواضع إهدار نظرية السياق في القرآن الكريم والحديث النبوي، وتناولتها في ضوء المنهج الوصفي القائم على التحليل، وقدمتها في هذا البحث من خلال محورين مسبوقين بمقدمة في الخصائص الدلالية للألفاظ العربية المستعملة في الخطاب القرآني، تلتهما خاتمة تضمنت أهم نتائج البحث وتوصياته، أما المحوران فأولهما في مواضع إهدار نظرية السياق في القرآن الكريم، والثاني في مواضع إهدار نظرية السياق في الحديث النبوي، وإليك موضوع البحث.

المقدمة

الخصائص الدلالية للألفاظ العربية المستعملة في الخطاب القرآني.

في أغلب الأحوال يحدث التغير الدلالي للكلمات تدريجيا، فتكتسب الكلمات معنى آخر بعد فترة من الزمن، لكن ذلك لم يحدث مع كلمات اللغة العربية المستخدمة في القرآن الكريم، فحينما أنزل الله تعالى القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حَمَّلَ الألفاظَ العربيةَ معاني ودلالات لم تكن معهودة عند الإنسان العربي القديم، وما كانت هذه الدلالات إلا بسبب السياق القرآني، فالسياق القرآني منح اللفظ العربي امتدادا في المدلول بصورة فريدة لم تشهدها أية لغة من لغات البشر، من هنا صارت دلالة ألفاظ القرآن الكريم ذات وَضْعٍ خاصّ، وَضْعٍ لا يكفي فيه الاعتماد على المعجم العربي في تفسير ألفاظ القرآن الكريم؛ لأن القرآن قد أحدث قفزة كبيرة في استعمال الألفاظ العربية، بتحويل دلالة ألفاظ اللغة العربية من الاستعمال العربي البسيط إلى نَسَقٍ مخالف لاستعمال الشاعر أو الأديب الجاهلي[1]، نَسَقٍ خاضعٍ للسياق العام للمنهج الإسلامي، واللغويون الذين حاولوا تفسير القرآن الكريم بمعزل عن السياق الذي استَــعْمَل فيه القرآنُ الكلمةَ وقعوا في أخطاء جسيمة؛ لأن إغفال السياق القرآني قد يُحَجِّمُ المعاني العظيمة ويُضَيِّقُ المعاني الواسعة التي يحملها القرآن الكريم؛ فاللفظ قد يكون موضوعا في اللغة لمعنى معين، لكن مراد الله تعالى قد يكون غير ذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها قول أبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه «مجاز القرآن» عندما أراد تفسير قول الله تعالى: (وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ)

(١) وهذا لا ينفي أثر الشعر الجاهلي في فهم ألفاظ القرآن الكريم، فهو مستوى واحد فقط من مستويات تحليل الخطاب القرآني، لا يمكن الاعتماد عليه وحده دون وضع النص المراد تفسيره في السياق العام للمنهج الإسلامي.

بسورة الواقعة، في الآية رقم٢٩، يقول: "زعم المفسرون أنه الموز، وأما العرب فالطلح عندهم: شجر عظيم كثير الشوك، قال الحادي:

بَشَّرها دليلُها وقَالا ... غَدًا تَرِيْنَ الطَّلْحَ والحِبَالا [١]".

فأبو عبيدة معمر بن المثنى فَسَّرَ كلمة (طَلْح) تفسيرا لغويا بحتا، ولم يُراع الاستعمال القرآني لها ولا السياق الذي وردت فيه فأخطأ في التفسير، ولو أنه استعمل المنهج السياقي في التفسير لعلم أن الآية مسوقة مساق الامتنان في قوله تعالى:« وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمينِ (٢٧) في سِدْر مَخْضُود (٢٨) وطَلْح مَنْضُود (٢٩) وظلٍّ ممدود (٣٠) وماء مَسْكوب (٣١) وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣) وفُرُش مرفوعة (٣٤) إنَّا أنْشأناهُنَّ إنشاءً (٣٥) فجعلناهُنَّ أبكارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرابًا (٣٧) لأصحابِ اليمينِ(٣٨)» في سورة الواقعة، الآيات:٢٧-٣٨؛ فالله تعالى ذَكَرَ منَنَهُ العظيمة على عباده المؤمنين في الجنة، فكيف يمْتَــنُّ عليهم بشجر كثير الشوك، والشوك لا يعد من النعم في شيء، فسياق الآية يُبَيِّنُ أنَّ الله تعالى قد امْتَــنَّ على أصحاب اليمين بنعَم كثيرة، منها الطلح المنضود، الذي هو الموز.

فالمنهج القويم في التعامل مع القرآن الكريم هو وضع اللفظ المراد تفسيره في السياق العام للنص، لهذا حين فسر الإمام الطبري رحمه الله لفظ (الطلح) فسره تفسيرا صحيحا في ضوء السياق القرآني، قال: «وأما الطلح فإن معمر بن المثنى كان يقول: هو عند العرب شجر عظام كثير الشوك، وأنشد لبعض الحداة:

بَشَّرها دليلُها وقَــالا ... غَدًا تَرِيْنَ الطَّلْحَ والحِبَالا

وأما أهل التأويل من الصحابة والتابعين، فإنهم يقولون: إنه هو الموز[٢]»، فالتفسير اللغوي قاصر عن فهم المعنى القرآني للفظ (طَلْح)؛ لأنه لا ينسجم مع سياق النص القرآني.

---

(١) مجاز القرآن لمعمر بن المثنى ٢/٢٥٠.
(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري ٢٩/١٨١.

ومن الأمثلة التي اعتمد فيها معمر بن المثنى أيضا على مجرد اللغة (كلام العرب) دون مراعاة للسياق: لفظ (يعصرون) في قوله تعالى: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) بسورة يوسف، آية رقم٤٩، فعند تفسيره تلك الآية وَجَّهَ معنى قوله تعالى: (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) إلى (وفيه ينجون)، أي: ينجون من الجدب والقحط بالغيث، زاعما أنها من لفظ العَصَر الذي بمعنى المنجاة، كما في قول زبيد الطائي:

صَادِيًا يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ ... وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ المَنْجُودِ[1]

وقد اعتمد أبو عبيدة على اللغة أيضا في تفسيره هذه الآية؛ لأن أصحاب اللغة يذكرون أن العَصَر- بتحريك الصاد- هو المنجاة، أما الراغب الأصفهاني فقد فسرها تفسيرا ملائما لسياقها حين قال: «وفيه يعصرون، أي: يستنبطون منه الخير[2]»، فالتفسير اللغوي هنا لم يُصِب في بيان معنى الآية؛ لأنه لم ينسجم مع سياق النص الذي يفيد أن هذا العام هو عام خيرات وبركات، حتى إن الناس فيه كانوا يعصرون الفواكه لكثرتها ووفرتها.

نستخلص مما سبق أن المعنى اللغوي لا يكفي لتفسير القرآن الكريم، بل لا بد من ملاحظة التحول الذي طرأ على الألفاظ العربية في سياق القرآن الكريم، وهو منهج سياقي مهم، وقد وَظَّفَ ابن جرير الطبري هذا المنهج في تفسيره أحسن توظيف، فكان يرى أن للكلمة معنى في القرآن الكريم هو غير المعنى الذي كان لها في الجاهلية[3]، وكتابه (جامع البيان) حافل بالأمثلة على

---

(١) مجاز القرآن ١/٣١٣-٣١٤.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني صـ٣٣٦، وجاء في تفسير الطبري: وأما قوله: "وفيه يعصرون" فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معناه: وفيه يعصرون العنب والسمسم وما أشبه ذلك. جامع البيان لابن جرير الطبري، مج٦ جـ١٢/صـ١٣٧.

(٣) يُنْظَر: دراسة الطبري للمعنى، محمد المالكي صـ٣١٠، ويُنْظَر: مفردات القرآن: نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، تأليف عبد الحميد الفراهي.

ذلك، ومن الأمثلة التي تُبَيِّنُ هذه القاعدة ما ذهب إليه في تفسير كلمة (الساحر) الواردة في قوله تعالى: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) بسورة الزخرف في الآية رقم٤٨، قال: «فإن قال لنا قائل: ما وجه قولهم: يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، وكيف سموه ساحرا وهم يسألونه أن يدعو لهم ربه ليكشف عنهم العذاب؟ قيل: إن الساحر كان عندهم معناه: العالم، ولم يكن السحر عندهم ذمًّا، وإنما دعوه بهذا الاسم؛ لأن معناه عندهم كان: يا أيها العالم[1]»، والعرب تعرف السحر بعدة معانٍ[2]، فقد يستعمل السحر في سياق الذم، وقد يستعمل في سياق المدح، وقد لمح الطبري دلالة السحر على المدح نتيجة تأمله في حياة الألفاظ وتطورها عبر الزمن، ونتيجة تأمله في السياق العام للقرآن الكريم، إذ يذكر القرآن الكريم أن الساحر في عهد موسى عليه السلام قد يكون عالما وقد يكون كذابا، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) سورة يونس/الآية: ٧٩، وقال: (وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) سورة الأعراف/الآيتان: ١١٠-١١١، وقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) سورة غافر/ الآيتان: ٢٣-٢٤، فالساحر عندهم قد يكون عالما وقد يكون كذابا، وسياق النص هنا اقتضى ما ذهب إليه الطبري من كونه عالما؛ لأنهم قد

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري ٨٠/٢٥.

(٢) إن العرب تعرف السحر بالمعاني الثلاثة التي ذكرها الراغب وهي: «الأول: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها، نحو ما يفعله المشعوذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع، والثاني: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه، والثالث: ما يذهب إليه الأغتام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع فيجعل الإنسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين.المفردات في غريب القرآن صـــ ٢٢٦.

طلبوا منه دعاء الله تعالى، وهو سياق لا ينسجم مع الدلالة العربية المتطورة لكلمة (ساحر).

ومن ذلك أيضا تفسيره "السجود" في قوله تعالى: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) سورة يوسف/الآية: ١٠٠، فالسجود هنا ليس سجود عبادة، فهو منهي عنه، إنما هو سجود خُلُق، أي: تحية بينهم، قال الطبري: «إن السجود كان تحية بينهم، إن ذلك كان منهم على الخلق لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض، ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديما قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة:

فَلَمَّا أَتَانَا بُعَيْد الكَرَى ... سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَعْنَا عَمَارَا[1]»

وبناء على ما سبق نقول: إن القرآن الكريم نزل بألفاظ العرب ودلالاتها، لكن كثيرا من ألفاظ العرب قد انزاحت عن مدلولاتها، وأصبحت لها دلالات إسلامية مفترقة عن هيئتها الأولى في لغة العرب بسبب السياق القرآني، فكان السياق القرآني هو المنتج للدلالة.

وبعد هذه المقدمة المرتبطة بنظرية السياق القرآني، إليك بعضا من الجمل التي تم بترها من سياقها القرآني أو سياقها النبوي، فمثلت ظاهرة كارثية في إهدار السياق القرآني أو النبوي، هذه الجمل أعرضها في محورين كالتالي:

المحور الأول : الجمل المقتطعة من السياق في القرآن الكريم

أشرت في مطلع البحث إلى أن الذين يخوضون فى النصوص القرآنية دون امتلاك أدوات العلم الشرعى- كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والسياق اللغوي والتاريخي الذى قيلت فيه النصوص القرآنية- يشوهون الدين أيَّــما تشويه؛ لأنهم يتوجهون إلى النصوص الصحيحة فيقتطعونها من سياقها اللغوي ويفصلونها عن زمن ورودها وأسباب نزولها، ومن المعلوم أن ارتباط

(١) جامع البيان، ابن جرير الطبري مج٦ جـ١٣/صـ٤٥.

النص بسياقه ومعرفة سبب نزوله من أهم أدوات فهم المراد من النص، لذا، كان السابقون يحدثون بفضل الله عليهم بما منَّ عليهم به من معرفة أسباب نزول الآيات، فها هو حَبر الأمة عبدالله بن عباس، رضى الله عنهما يقول: «ما من آية فى كتاب الله إلا أعلم متى وأين وفيمن نزلت»، فكان بذلك من أعرف الصحابة بفهم المراد من الآيات ومن أقدرهم على إدراك عمومها وخصوصها، ولأهمية معرفة أسباب النزول ودورها فى فهم النص القرآنى انبرت أقلام السلف الصالح من العلماء تصنيفًا لأسباب النزول، فأفردوا لذلك مصنفات خاصة حتى كادت موضوعات أسباب النزول أن تصبح علمًا مستقلًا وأداة لا غنى عنها لمن أراد الفهم الصحيح للنصوص المطروحة للتحليل والدراسة(١).

وأسباب النزول يُقصد بها "المناسبات الزمانية والمكانية والشخصية والجماعية التي نزلت فيها آيات معينة، بيانا لحكم فيما استشكل على الجماعة المؤمنة(٢)"، وهو موضوع ذو أهمية خاصة لفهم القرآن وتقدير أحكامه المنزلة، لأنه يهتم بمعرفة أسباب نزول الآيات القرآنية والقضايا والحوادث المتعلقة بها، وكذلك وقت نزول الآية ومكانها بغرض معرفة تفسيرها وفهمها فهما صحيحا، يقول دكتور عبد الصبور شاهين: "لا ريب أن للمناسبة أثرًا في تفسير المراد بالنص، بل إنها همزة الوصل بين هذا النص من حيث علوية المصدر، وبينه من حيث هدفه في معالجة الواقع، وقد تقررت قاعدة أصولية تقول: (إن العبرة دائما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، ومع ذلك يبقى للسبب أهميته في توجيه هذا العموم وتشخيصه، ولنأخذ على ذلك بعض الأمثلة: قوله تعالى: (فأَيْنَما

(١) من أهم الكتب التراثية في أسباب النزول: أسباب نزول القرآن، للإمام علي بن أحمد الواحدي ت٤٦٨هـ، العُجاب في بيان الأسباب، للحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي.

(٢) حديث عن القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، سلسلة كتاب اليوم الصادرة عن دار أخبار اليوم عدد ديسمبر ٢٠٠٠م صـ٢٤.

تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ. البقرة آية١١٥)، فلو أخذت هذه الآية على إطلاقها لما وجب استقبال القبلة في الصلاة في السفر أو الحضر، ولكن معرفة سبب النزول تدل على أن ذلك مقصور على قافلة السفر، أو فيمن صلى باجتهاد حين غمض عليه تحديد اتجاه القبلة، ومثال آخر قوله تعالى: (إِنَّ الصَّفَا والمروةَ منْ شعائرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البيتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) البقرة١٥٨، فإن ظاهر هذه الآية قد يفيد أن السعي ليس من شعائر الحج، وهو ما قرره بعض الفقهاء، لكن عائشة رضي الله عنها ذكرت في سبب نزول الآية أن بعض الصحابة تأثموا من السعي بين الصفا والمروة؛ لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت هذه الآية لتؤكد ضرورة السعي استكمالا لأداء فريضة الحج كما أرادها الله سبحانه وتعالى، وأكثر مناسبات النزول على هذا النحو، يتجاوزها النص إلى عموم يعالج حالات أخرى متجددة، بحيث يصبح السبب جانبا من تاريخ النص، يسترشد به في بيان المراد أصلا(١)".

والآن إليك عددا من الجمل التي تم اقتطاعها من النص القرآني دون مراعاة للسياق القرآني:

١-جملة: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) بسورة البقرة آية/ ١٩٥.

تَمَّ بَتْرُ هذه الجملة من سياقها للاستشهاد بها على حرمة التدخين، باعتبار أن التدخين إلقاء بالأيدي إلى التهلكة.

والحقيقة أنَّ هذه الجملة جُزْءٌ من الآية ١٩٥ من سورة البقرة، تقول الآية: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)، وهذه الآية جاءت بعد آيات تتحدَّث عن الجهاد في سبيل الله، هذه الآيات: «وقَاتِلوا في سَبيلِ اللهِ الذينَ يُقَاتِلونَكُم ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ (١٩٠) واقتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفِتنةُ

(١) حديث عن القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، صـــ٢٥-٢٦ .

أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ ولا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرامِ حَتَى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فإنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلكَ جَزاءُ الكَافِرِينَ (١٩١) فإنِ انْتَهَوا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رحِيمٌ (١٩٢) وقاتِلُوهُمْ حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ للهِ فإنِ انْتَهَوا فلا عُدوانَ إلَّا علَى الظَّالمينَ (١٩٣) الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحرماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعتَدَى عليكُمْ فاعتَدُوا عَليهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيكُمْ واتقُوا اللهَ واعلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) » البقرة: ١٩٠ – ١٩٥.

بتأمل هذه الآيات جميعا نجد أن السياق القرآني فيها حول الحديث عن الجهاد، وأما قوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) في الآية رقم ١٩٥ ففي معناه عدة أقوال: منها أن الآية رقم١٩٥ نزلت في النفقة، فيما ذكر القرطبي – عن ابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وغيرهم – وقال معناها: لا تُلْقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تَتْركوا النَّفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أُنفقه[١].

فقوله تعالى: (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) مذكور في سياق الحديث عن الجهاد والنفقة في سبيل الله، لا في الحديث عن حرمة التدخين، وهنا لا ندافع عن التدخين أو نجيزه، لكن نتحدث عن مدى إهدار السياق القرآني، وكان من الممكن الاستدلال على حرمة التدخين بشواهد أخرى من القرآن والسنة، دون

(١) وذكر القرطبي خمسة أقوال في تفسير هذه الآية، وقال: رَوى التِّرمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران أنهم في غزو القسطنطينية حمل رجل من المسلمين على صف الروم حتَّى دخل فيهم فصاح الناس: إنه يُلْقي بيديه إلى التَّهْلُكة، فصحَّح لهم أبو أيوب الأنصاري معنى الآية بأنَّها نزلت في الأنصار لما نصر الله نبيَّه وأظهر دينه قالوا: هَلُمَّ نُقيم في أموالنا ونُصلحها؛ لأنَّها ضَاعَتْ، فالتَّهلكة هي الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الغزو. تفسير القرطبي مج١ جـ٢/صـ٣٦١-٣٦٢ .

اللجوء لجريمة إهدار السياق القرآني، وبَتْرِ الجمل عن دلالتها داخل النص[1]؛ لأن اقتطاع هذه الآية للاستدلال بها على حرمة التدخين باعتباره من الوسائل المهلكة، يترتب عليه فساد استدلالي؛ لأنه بنفس طريقة الاستدلال هذه، يمكن أيضا الاستدلال بنفس الآية على حرمة تناول السكر والملح والدقيق الأبيض؛ لأن العلم الحديث أثبت أنها سموم بيضاء يؤدي الإسراف فيها إلى هلاك الإنسان.

٢- قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» بسورة البقرة (الآيتان ٢٧٨- ٢٧٩)، انتزع الخطباء الآية الثانية من سياقها القرآنى واجتزءُوها من المخاطب بها؛ لينزلوا اللعنات على المقترض المحتاج وينذروه بحرب من الله ورسوله، غير أننا لو استعدنا سياق آيات الربا فى القرآن، لوجدناها تعبر عن مخاطَب آخر غير المخاطب الذي أراده أولئك الخطباء، فالآية فى سياقها القرآنى تخص بالخطاب جماعة من المسلمين كانت ترفض إسقاط الربا عن المسلمين وترفض الانتهاء عن هذه الفعلة، وقد سبق الله تعالى هذه الآية بآيات يستحسن فيها قيم التكافل فى المجتمع الإسلامى غير مدفوع الأجر بقوله سبحانه: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ

(١) كان من الممكن الاستدلال على حرمة التدخين بشواهد أخرى من القرآن، فمن الدلائل القرآنية على تحريم شرب الدخان قوله سبحانه وتعالى في سورة المائدة: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ)، وقال في سورة الأعراف في وصف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، ففي هاتين الآيتين أوضح الله سبحانه وتعالى أنه لم يحل لعباده إلا الطيبات من الأطعمة والأشربة النافعة، أما الأطعمة والأشربة الضارة بالبدن أو العقل كالمسكرات والمخدرات، فهي من الخبائث المحرمة، وقد أجمع الأطباء على أن الدخان من المشارب الضارة، وذكروا أنه سبب كثير من الأمراض، كالسرطان وموت السكتة، وغير ذلك.

رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» البقرة ٢٧٤ ، ثم ساق رب العزة فى ذات السياق النعى والوعيد للقيم المخالفة والرافضة للانتهاء عن الربا والذين يستحلونه من خلال قياسه على نشاط اقتصادى مماثل (البيع)، فأتت الآيات: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» البقرة (٢٧٥-٢٧٧)، ثم عَقَّبَ الله فى نهاية الآيات على رفْضِ هؤلاء إسقاط الربا الزائد عن المسلمين والانتهاء عنه بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» البقرة (٢٧٨-٢٨١).

وهنا يتضح بجلاء مفهوم السياق من النص ويُتَبين المخاطَب فى الآيات، وهم المُقْرِضون الذين يملكون رءُوس الأموال -كما وضحت الآيات- الذين خاطبهم الله لإمهال المعسر فى السداد، لذا، فالآيات لم تأت في الأصل للتكلم عن المقترضين الذين هم فى حاجة للاقتراض، فالسياق أبدا لا يحتمل مخاطَبًا آخر كما ذهب الخطباء المعاصرون، لكن بعض الخطباء - بسبب علاقاتهم بأصحاب البنوك الإسلامية - ينزلون اللعنات على مخاطَب غير مقصود فى الآيات، ينزلونها على المقترضين الذين هم فى حاجة للاقتراض، ويتوعدونهم بحرب من الله ورسوله؛ لكي يبتعدوا عن سائر البنوك، ويتوجهوا فقط إلى

البنوك الإسلامية، وتلك جريمةٌ فى حق النص الإلهى، وفي حق المجتمع الإسلامي كذلك.

٣- جملة:" الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ " بسورة النساء آية: ٣٤.

اجتزأ بعض الخطباء جملة "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ"، وفسروها بـــ فرض القرارات والأوامر على المرأة، وفي هذا التفسير ظُلْمٌ للشرع الحنيف، وظُلْمٌ للمرأة أيضا؛ لأن قوامة الرجال على النساء في الآية كاملة – دون اجتزاء شيء منها– تعني قوامة الرعاية والعناية والإنفاق على النساء، أي: تعني احترام النساء، وتوفير الحماية لهن، وإعانتهن على شئون الحياة، والأخذ بأيديهن نحو طريق الخير والسعادة؛ لأن المرأة ليست جاريةً للرجل، ولا تابعة له، إنما هي شريكةٌ له في الحقوق والواجبات.

هذا هو مفهوم القوامة الحقيقي، المأخوذ من سياق الجملة كاملة "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ" دون اجتزاء، والله تعالى أعطى للرجال حق القوامة بسببين، أولهما: بسبب ما فضل الله به جنس الرجال على جنس النساء عموما، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: (فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أي: بتفضيل الله جنس الرجال على جنس النساء، حيث منح الله الرجال قوة جسمية أضافت لهم أفضلية على النساء اللائي لا يستطعن القيام بالأعمال التي تتطلب مجهودًا بدنيًّا كبيرًا، وجعل منهم الأنبياء والخلفاء والسلاطين، وجعل الطلاق بأيديهم، والانتساب إليهم، وغير ذلك مما فضل الله به جنس الرجال على جنس النساء عموما، والسبب الثاني في جعل القوامة للرجل على المرأة هو: بما أنفقه عليها، وما دفعه إليها من مهر، وما يتكلفه من نفقة في الجهاد، وما يلزمه في العقل والدية، وغير ذلك مما لم تكن المرأة ملزمة به، وقد أشار الله إليه في الآية بقوله: "وبما أنفقوا من

أموالهم"[1]، فقوامة الرجل على المرأة هي تكريمٌ للمرأة وتفضيل لها، وزيادة مسئولية للرجل، وتحميل أعباء إضافية عليه.

فالقوامة معناها: القيام على الشيء رعاية وحماية، أما المقصود بالقوامة بتفضيل الرجال على النساء في قوله تعالى: (بما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)، كما ذكر في الآية الكريمة فالمراد منه تفضيل جنس الرجال على جنس النساء، وليس المراد منه تفضيل جميع أفراد الرجال على جميع أفراد النساء، لأن الله سبحانه وتعالى قد فضل المرأة على الرجل في عدة أمور، وفضل الرجل على المرأة في أمورٍ أخرى، فالرجل بطبيعته يرجح عقله على قلبه وهذه مزية وأفضلية فيه، والمرأة تغلبها عاطفتها فيرجح قلبها على عقلها في معظم الأحيان وهذه مزية وأفضلية فيها، وإلا فكم من امرأة تفضل زوجها في العلم والدين والعمل والرأي وغير ذلك[2].

٤- جملة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» بسورة المائدة آية/٤٤، هذه الجملة اقتطعها بعض الخطباء واجتزأها؛ ليحكم من خلالها على دول إسلامية كاملة بالكفر والخروج من الملة؛ لأنهم يتعاملون بالقانون الوضعي، والحقيقة: إن هذه الجملة مذكورة ضمن آيات خاصة بخطاب أهل الكتاب، تقول الآيات: « إِنَّا أنزلنا التوراةَ فيها هُدًى ونُورٌ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الذينَ أَسْلَمُوا للذينَ هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبارُ بِما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كتابِ اللهِ وكانُوا عليهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ ولا تَشْتَرُوا بآياتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكافرونَ (٤٤) وكَتَبْنَا عليهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ والعَيْنَ بالعَيْنِ والأَنْفَ بالأَنْفِ والأُذُنَ بالأُذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ والجُرُوحَ

(١) وإذا تخلى الرجل عن مزيته التي ميزه الله تعالى بها فلم ينفق على امرأته، فإن ذلك يسلبه حق القوامة عليها، ويعطيها هي الحق في القيام بفسخ النكاح بالوسائل المشروعة، هذا هو ما يقتضيه تعليل القوامة في الآية الكريمة بالإنفاق.

(٢) يُنْظَر: المرأة في القرآن تأليف عباس محمود العقاد صـ٧-١٥.

قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنَ مريمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ وءَاتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فيهِ هُدًى ونُورٌ ومُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوراةِ وهُدًى ومَوعِظَةً للمُتَّقِينَ(٤٦) ولْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ (٤٧)».المائدة: ٤٤ – ٤٧ ، فالآيات هي في أهل الكتاب خاصة، لكنها عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله، هذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، استنادًا إلى أنَّ العِبْرَة بِعُموم اللَّفظ لا بخصوص السبب[١]، أمَّا الحُكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله تعالى، فالخلاصة فيه أنَّه لا بُدَّ من التَّفريق بين من يحكم بغير ما أنزل الله جُحُودًا له، أو استِخفافًا به، أو استِحلالًا لمخالفته، وبين من يحكم بغير شَرعِ الله تعالى اتِّبَاعًا للهوى، ومعصيةً لله، فالأوَّل: كافرٌ مُرْتَدٌّ لا خلافَ في ذلك، وأمَّا الثاني: فآثمٌ عاصٍ فاسقٌ، مُرْتَكِبٌ كبيرة منَ الكبائر، لا تخرجه عن مِلَّة الإسلام، لكنَّ الخوارج ومن نهج نهجهم هم الذين تأوَّلوا هذه الآية على تكفير كلِّ من ترك الحُكم بما أنزل اللهُ تكفيرا مطلقا سواء أكان جحودا أو عصيانا لله[٢]، وهذا يخالف ما عليه أقوالَ السَّلف وعلماء الأمَّة[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٠/ ٣٥٣، تفسير القرطبي ٦/١٩٠.

(٢) قال الفخر الرَّازي (ت٦٠٦هـ): قالت الخَوارج: كلُّ من عصى الله فهو كافر، وقال جمهور الأئمة: ليس الأمر كذلك، أمَّا الخوارج فقد احتجُّوا بهذه الآية{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) المائدة: ٤٤}، وقالوا: إنَّها نَصٌّ في أنَّ كلَّ من حَكَمَ بغير ما أنزل اللهُ فهو كافر، انظر: مفاتيح الغيب مج٦ جـ١٢/صـ٥.

(٣) في تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) المائدة: ٤٤} أقوال: قال ابن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير الطبري: «هي به كُفر، وليس كُفْرًا بالله وملائكته وكتبه ورسله»، وعنه أيضاً أنَّه قال: «إنَّه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنَّه ليس كفرًا ينقُل عن الملِّة»، وقال طاوس: «كفرٌ لا ينقل عن المِلَّة»، وقال=

٥- جملة: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» بسورة التوبة آية٣٦.

هذا مثال آخر على إهدار السياق القرآني وإغفال السياق الدلالى لآيات القرآن، حيث اجتزأ بعض الخطباء هذه الجملة وذكروها مفصولة عن بقية الآية، أي: مفصولة عن قوله تعالى: «كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» التوبة ٣٦، فعلوا ذلك لإباحة البدء بقتال الناس، واجتزاء النص أشد غرابة من اقتطاع النص، وهو أمْرٌ يقع فيه بعض دعاة التجديد فى أيامنا هذه، حيث يعمدون إلى تجزئة النص الواحد وفصله عن بقيته، وهذا الفعل إن كان متعمدًا- في هذا الموضع- فهو جناية فى حق شريعتنا السمحة التى تدعو إلى السلام والرحمة وعدم البدء بالقتال؛ لأن علة الأمر بقتال المشركين هى مقاتلتهم المسلمين، وهذا ظاهر من الآية كاملة دون اقتطاع، بل يفهم من الآية أننا إذا بادرناهم بالقتال لا نكون من المتقين، ومن ثم، فإن الاستشهاد ببعض النص – دون بقيته – يشوِّه الشرع؛ حيث يمكن الاستدلال على تحريم الفرائض عن طريق هذه الحيلة، كالوقوف عند قوله تعالى: «لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ»، دون تتمة النص، وقد فعلها الشاعر العباسي أبو نواس عندما قيل له توقف عن شرب الخمر، فاجتزأ (ويلٌ للمصلين) من سياقها القرآني وقال:

دع المساجد للعُبَّاد تسـكنهـا .. واذهب بنا للخمار يسقينا

ما قال ربك ويلٌ للألى سكروا .. وإنمـا قال ويلٌ للمصلينا

=عطاء: كفرٌ دونَ كفرٍ، وظُلْم دونَ ظُلْم، وفِسْقٌ دونَ فِسق»، وقال ابن عَطيَّة (ت٥٤٢هـ): «قالت جماعة عظيمة من أهل العلم: الآية مُتَنَاوِلة كلَّ من لم يحكم بما أنزل الله، ولكنَّه في أُمراء هذه الأمة كُفْرُ معصية لا يخرجهم عن الإيمان»، وقال ابن العَرَبي (ت٥٤٣هـ): «إن حَكَمَ بما عندَه على أنَّه من عند الله فهو تبديل له يُوجِبُ الكُفرَ، وإن حَكَمَ به هوىً ومَعْصِية فهو ذنبٌ تُدْرِكُه المغفرةُ على أصل أهل السُّنَّة في الغُفْرَان للمُذنبين». انظر: تفسير الطبري١٠/ ٣٥٦، وانظر: المحرر الوجيز ٢/ ١٩٦، وانظر: أحكام القرآن ٢/٦٢٥.

وإذا كان فصلُ النص عن سياقه اللغوى والتاريخى قد يقع فيه الخطيب بسبب جهله وقلة علمه وقصر همته عن معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، فإن اجتزاء النص غالبًا ما يكون متعمدًا بغرض التدليس والتلبيس على الناس؛ لبلوغ غاية فى نفس الخطيب حسب توجهه الفكري والعقدي.

٦- جملة: «وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ» بسورة الأحزاب آية٣٣، هذا مثال آخر على إهدار السياق القرآنى وإغفال السياق الدلالى للآيات من خلال اختلاق مخاطب بها من صنع الفقهاء والخطباء، حيث استخدموا هذه الجملة لبيان حرمة خروج المرأة من بيتها والحكم بالفسوق على كل من تخرج من بيتها، على الرغم من أن السياق المتوالى للمخاطَب فى النص هن نساء النبى خاصة، وليس نساء المسلمين، فسياق الآيات غير المبتور يقول الله فيه: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا» الأحزاب (٣٢-٣٤)، فالآيات بلا شك -كما هو واضح - موجهة إلى نساء النبى خاصة، وذلك لعظم شأنهن، ولمكانتهن الروحية فى الإسلام، حيث هن أمهات المؤمنين، وعلى الرغم من أن المعنى المراد من الآية والخطاب الموجَّه لنساء النبى لا يحتمل أبدا منعهن من الخروج من بيت النبوة، لكن الخطباء دلسوا فى توجيه السياق واعتبروه خطابا لكل النساء المسلمات؛ ليضيقوا عليهن حياتهن، ويحرموهن من الحياة الاجتماعية السليمة[١].

(١) الخطباء والوعاظ هم في هذا المثال تابعون للوهابيين، والغريب أن الوهابيين إذا ما حاجهم أحدٌ بأن الآيات موجهة لنساء النبى فقط تجدهم يردون بأن نساء الأمة أولى أن يتأسوا ويتبعوا ما نزل فى نساء النبى، وهذا بالطبع كلام غير دقيق؛ لأن الآيات بسياقها حكمت أن لنساء النبى وضعًا دينيًّا مختلفا، فالآيات تبتدئ بقول الله: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» ولكن ذلك منهج الوهابية المعهود.

٧-جملة: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ»، بسورة الماعون (آية٤).

بَتَرَ أولئك الخطباء هذه الجملة من سياقها؛ للاستشهاد بها على النهى عن السهو عن الصلاة، متوعدين المسلمين بالويل إذا سهوا عن صلاتهم، وهذا الاستشهاد غير صحيح؛ لأن الحقيقة تكمن في سياق سورة الماعون كاملة، فالسورة تمثل وحدة واحدة لعدة أوصاف للمنافقين الذين علم الله نفاق قلوبهم، وكفرهم بدعوة محمد، والسورة ما هى إلا تعبير وتوصيف لهم، يقول الله فيها: «أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ»، سورة الماعون الآيات ١-٧ فالله سبحانه وتعالى يخاطب النبى مبينا له أوصاف بعض المنافقين الذين يكذبون بالدين كله، يبين أوصافهم فى سياق واحد: أنهم يَدُعُّون (يقهرون) اليتيم ولا يحضون على إخراج الصدقات لإطعام المساكين، ولا يؤدون الصلاة في أوقاتها متعللين بالسهو كعذر لعدم أدائها فى وقتها، فهذا العرض هو تتابعٌ متوالٍ لأوصاف بعض المنافقين فى سياق واحد، لذلك فإن الله تعالى يُعَقِّب بجملة: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ»؛ لتكون تتمة أوصاف أولئك المنافقين فى ذات السياق، يتوعدهم الله فيها بالويل؛ لأنهم يتظاهرون بالصلاة، والسهو هنا لا علاقة له بالسهو المعروف، بل هو من قبيل النفاق واستكمالٌ لأوصاف المنافقين التى حددتها الآيات، أى: إظهار السهو عن الصلاة كعذر لعدم أدائها فى وقتها، حيث جاء الوصف فى معرض الكلام عن النفاق الكامل والتكذيب بالدين، والدليل على ذلك: تعقيب الله على أولئك القوم المنافقين فى نهاية السورة بقوله: «الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ»، بمعنى أنهم حتى إذا أتوا للصلاة مداهنين جاءوا مرائين، أى: يفعلون حركات الصلاة نفاقا؛ لكى يراهم الناس، وذلك من مجموع وصفهم جميعا، ثم هم يمنعون الماعون (أي: الصدقات والزكاة)، إذن لا يمكن ولا يُحتمل ولا يُتصور أن تقتطع الآيات من سياقها الموحد المتسق المتوالى كما

فَعَل معظم الخطباء؛ ليسقطوها على المسلم الذى يحافظ على صلاته، لكنه قد يسهو عنها فى وقت ما.

وهذا الإيضاح لا يعني أنه دعوة للسهو عن الصلاة وترخيص للمسلم بأن يأتيه، بل المقصد منه بيان الدلالة الحقيقية للخطاب الرباني الذى قصده الله، وأراد إيصال مضمونه إلى المؤمن، وهو ترغيبه فى عدم ارتكاب المعاصى، لا ترهيبه إذا ما هو ارتكبها، لكن أسلوب الترغيب القرآنى هذا قد ضاع بكل أسف على أيدي الخطباء والفقهاء الذين راحوا يتوعدون المسلم بعقوبة لم يتوعده الله بها، حيث يتوعدونه بالويل عند السهو عن الصلاة محذرينه باستخدام قول الله: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» الماعون (٤-٥)، ذلك على اعتبار أن السهو المقصود فى الآية هو السهو المعروف عن الصلاة، على الرغم من أن السهو بمعناه الحقيقى هو فرع من النسيان البشرى والطبيعى، الذى من الممكن أن يحدث لأي إنسان من شدة انشغاله، فيسهو عن أداء الصلاة مرات، وذلك مما هو معفوٌّ عنه فى الدين، لكن الذى حدث أن المفسرين والفقهاء ومن بعدهم الخطباء اقتطعوا جملة «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» من سياقها، وكأنه لا وجود لسياق قرآنى لنزول هذه الآيات.

المحور الثاني : الجمل المجتزأة من السياق في الحديث النبوي

لم تتوقف عملية إهدار نظرية السياق خلال الخطاب الدينى المعاصر عند آيات القرآن فقط، بل أصابت الأحاديث النبوية، وإليك بعض الأمثلة من الجمل المقتطعة من سياقها في الحديث النبوي الشريف:

١-جملة: (لقد جئتكم بالذبح) في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده[١].

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في "المسند" (٦٠٩/١١) طبعة مؤسسة الرسالة من رواية الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وحسنه المحققون، والشيخ أحمد شاكر في (تحقيق المسند) أيضا، وحسنه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٩/٦)، وكذا الشيخ الألباني في "صحيح الموارد" (٣٠٤١).

اجتزأ بعض الخطباء هذه الجملة من سياقها، فأظهروا النبي صلى الله عليه وسلم سَفَّاكًا للدماء، محبًّا للقتل، وقد سمعت بأذني أحد الخطباء يستشهد بهذه الجملة على ضرورة معاملة غير المسلمين بمنتهى القسوة، وقد أثارت هذه الجملة في نفسي حيرة شديدة، وقلت: ربما يكون الحديث موضوعا ولم يتنبه الخطيب لمدى صحته، فبحثت، فوجدت للحديث معنى صحيحًا في أحاديث البخاري(١)، لكن لمَّا نظَرْتُ في رواية الحديث في مسند الإمام أحمد، وجَدْتُ للحديث سياقًا خاصًّا(٢).

---

(١) جاء في رواية الإمام البخاري (٣٦٧٨) لأصل القصة أن عروة بن الزبير رحمه الله قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّه بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِه فَخَنَقَهُ بِه خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لهم: أما والله لا تنتهوا حتى يحل بكم عقابه عاجلًا، وبعد ذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون ممن يذبح الله بأيديكم عاجلًا، عزاه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (١٦٨/٧) للزبير بن بكار، والدارقطني في "الأفراد" وأشار إلى ضعف هذه الرواية.

(٢) قال يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، قال: وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، قال: فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: (تسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح)=

هذا السياق يجعل الحديث لا يثير الحيرة في نفس المستمع، فسياق الحديث في مسند الإمام أحمد يبين أن المقصودين بالذبح هم أشخاص معينون محددون، هم أولئك الذين كانوا يصرون على الكفر بالله، وعلى حرب الإسلام ورسوله، واضطهاد المستضعفين من المسلمين، والتسلط على نسائهم وشيوخهم، لفتنتهم عن دينهم، هم الذين كانوا يفرضون مبادئهم وأفكارهم بالدم والتعذيب والتنكيل، هؤلاء هم الذين قتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شر تقتيل، قتلوا سمية زوجة ياسر، وقتلوا زوجها، وعذبوا بلالًا، وهموا بقتل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يتركوا أسلوبًا من أساليب التعذيب والظلم إلا مارسوه على المؤمنين، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة، لعلهم يجدون لدى ملكها الراحة والأمان، فهؤلاء المجرمون من كفار قريش هم الذين هددهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بالقتل والذبح مرة من المرات، وهم يستحقون مجابهتهم بالقوة والتهديد والوعيد من خلال الخطاب التهديدي "جئتكم بالذبح"، فالخطاب خاص بهم، وليس دعوة عامة لقتل كل من لم يتبع المسلمين في العقيدة.

=فأخذت القوم كلمته، حتى ما فيهم رجل إلا كأن على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولًا، فانصرف صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك، إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا – لِما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم – قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم أنا الذي أقول ذلك)، قال: فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: وقام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه دونه يقول وهو يبكي: أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط، رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده.

فهذه الجملة يجب التعامل معها من خلال مراعاة عدة أمور رئيسة، منها: النظر في السياق الذي قيلت فيه، والنظر إلى نوع المخاطبين بها؛ لبيان الحادثة التي تفسر وتبين المقصود منها، ثم النظر في جميع النصوص المتعلقة بمضمون الجملة، تلك النصوص التي من خلالها يمكن الوصول إلى فهم نظرة الإسلام إلى مخالفيه في العقيدة، وليس من خلال نص واحد فقط، لأن مَنْ يجعل الخطاب عامًّا، يترتب عليه أن يفهم مستمعه أن الإسلام جاء بقتل من لم يتبعه مطلقًا، وهذا يتناقض مع أخلاق الإسلام وأخلاق نبي الإسلام الذي عفا عن أهل مكة بعد أذاهم الشديد له، حينما جاءه ملك الجبال ليطبق عليهم الأخشبين (جبلان بمكة)، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)[1]، وعفا أيضًا بعد فتح مكة عن كفار قريش الذين ظلموا المؤمنين وأكلوا أموالهم، بل أكرم بعض كبرائهم رجاء حسن إسلامهم، وذلك حين قال يوم فتح مكة: (مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ)، وجَعْلُ الخطاب عامًّا يتناقض مع شرع الله تعالى الذي أباح لنا قبول الجزية من أهل الأديان الأخرى، والموافقة على بقائهم في حماية دولة الإسلام وكفالتها، ويتناقض مع قبول النبي صلى الله عليه وسلم الصلح مع يهود المدينة، وتعايشه معهم رجاء أن يحفظوا العهد ولا يخونوا، ولم يقاتل أحدًا منهم حتى كانوا هم البادئين بالغدر والخيانة، ويتناقض مع أهم مقاصد الرسالة المحمدية التي أوجزها الله في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧، ويتناقض مع قول الرسول الكريم: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) رَدًّا عَلَى مَنْ قال له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ! قَالَ: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) رواه مسلم ٢٥٩٩ .

٢-جملة: (ناقصات عقل ودين) كوصف للنساء.

اجتزأ بعض الخطباء جملة «ناقصات عقل ودين» من سياقها في الحديث النبوي، فأبعدوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الآداب الاجتماعية السامية التي تراعي الوضع الخاص للنساء، وأهانوا المرأة بنقص العقل والدين، فصارت عندهم غبية عاصية، بحكم الإسلام ورسوله حسب التركيب المجتزأ، وأقول: إن ورود النص النبوى «ناقصات عقل ودين» كوصف للنساء، ينبغى أن يُفْهَم فى سياقه؛ لأن سياق الحديث يفيد معنى جمال المرأة، وقدرتها على التأثير على عقل الرجل، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم مخاطبًا النساء: «ما رأيْتُ مِنْ ناقِصَاتِ عَقْلٍ ودِينٍ أغْلَبَ لذى لُبٍّ منكن، فقالت إحداهن: يا رسول الله ، وما نقصان ديننا وعقلنا؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالى ما تصلى، وتفطر فى رمضان، فهذا نقصان الدين»، أخرجه أحمد فى مسنده.

فالحديث فى بدايته عبارة عن تدليلٍ للمرأة، وتَعَجُّب من قدرتها على التأثير على عقل أحكم الرجال، وليس في الحديث أية إساءة للنساء، لذا، عندما ظنت إحدى النساء أن المعنى فيه إساءة للنساء، سألت النبى عن معنى ذلك النقصان الذى أطلقه النبى، صلى الله عليه وسلم، فى بداية حديثه، فأخبرها النبى صلى الله عليه وسلم، بأن هذا النقصان لا يعنى دُنُوَّ منزلة المرأة فى العقل والدين عن الرجل، إنما يعنى ضعف ذاكرة المرأة غالبًا فى الشهادة على الأمور المالية (كالتجارة وغيرها من الأعمال التى غلب عليها الرجال) لقلة اشتغالها بها، ولذا، احتاجت من يذكّرها، ويعنى أيضًا ما يحدث للمرأة من أمور فسيولوجية خاصة بطبيعتها الأنثوية، كالحيض والنفاس، بسببها خفف الشرع عنها أثناء فترة متاعب الحيض والنفاس، فأباح لها ترك الصيام والصلاة.

فالحديث فيه إقرار لما قد يطرأ على ذاكرة كثير من النساء من نسيان فى نقطة واحدة، هى مجال الأعمال التى غلب عليها الرجال كالتجارة والأموال، وفيه كذلك إشارة إلى تخفيف الشرع عن المرأة فى أيام تنتابها متاعب صحية وتقلبات مزاجية، وكل ذلك على حد تدليلها والتلطف بها ومجاملتها وتطييب خاطرها، وهو من حسن الخُلُق، ومن علامات إرشاد الرجال إلى كيفية معاملة النساء بما يليق بهن.

فينبغى أن يُفْهَم ذلك النص النبوى فى سياقه، والفهم الصحيح لهذا النص لا يتم إلا بمراعاة مناسبة الخطاب، ومن يُوَجَّه إليه الخطاب، وصياغة أسلوب الخطاب، فمناسبة الخطاب صلاة العيد(١)، وهى مناسبة سعادة وسرور وبهجة، كان يأمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم أهل المدينة كلهم بالخروج إلى المصلى لصلاة العيد، فهل نتوقع عندها والنساء والمسلمون كلهم سعداء أن يعكر الرسول صلى الله عليه وسلم صفو يومهم بالحط من كرامة النساء وامتهان شخصيتهن، وأما المخاطب بالحديث فهم نساء الأنصار ومعهن نساء المهاجرين، ومعروف أن نساء الأنصار كن ذوات سطوة وصوله عن رجالهن، وتعلمت نساء المهاجرين منهن هذا الأمر(٢)، أما صياغة شكل الخطاب ففيها مدحٌ للنساء – عكس ما يفهم كثير من الرجال والنساء – فعندما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم نص هذا الحديث، فقوله صياغة تقريرية تعبر عن تعجب

---

(١) عن أبى سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: (يا معشر النساء ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل)؟ قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم)؟ قلن: بلى، قال: (فذلك نقصان دينها).

(٢) يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار.

الرسول صلى الله عليه وسلم من التناقض القائم في ظاهرة تَغَلُّب النساء بما فيهن من ضعف على الرجال بما فيهم من قوة بدنية وحزم وشدة، فالصياغة تدل على المدح والتعجب من قوة سلطة المرأة على الرجل، وتشير من طرف خفي إلي نصيحة النساء بأن يتقين الله عز وجل في هذه القوة والسلطة السالبة للب الرجل الحازم، ولا يستعملنها إلا في الطاعة والرشاد، لذلك كانت مناسبة العظة يوم عيد لتكون الصدور مسرورة، وأكثر انشراحا لقبول العظة والوصية.

أما تفسير (نقصان العقل والدين) فلم يدع لنا النبي صلى الله عليه وسلم المجال لتأويل النص حسب الهوى، إنما أخبرنا عن السبب في هذا النقصان في العقل والدين، وأعداء النبوة أدخلوا في عقول كثير من المسلمين عكس مضمون الحديث، وجعلوا الحديث ذما لعقل المرأة ودينها، كذبا وافتراء، إذ ليس فى هذا الحديث ذم لعقل المرأة أبدًا، ولا لدينها، وما ينسبه بعض الرجال إلى النساء من نقصان العقل والدين، إنما يتعمدون إلقاء ما فى نفوسهم من موروث العادات القديمة على بعض النصوص النبوية، فى محاولة منهم لتحريف مقاصد الشرع، لأن صورة المرأة فى نصوص الشريعة الإسلامية سواء فى القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة صورة بيضاء نقية، لا تشوبها شائبة تحقير أبدا[1].

٣-جملة: (إن المرأة خلقت من ضلع أعوج).

اجتزأ بعض الخطباء جملة «إن المرأة خُلِقَت من ضلع أعوج» من سياقها النبوي، وفسروا (عوج الضلع الذي خُلِقَت منه المرأة) بأنه دليلٌ على أن المرأة ذات طبيعة ملتوية، فيها مكْرٌ وخديعة، وهذا القول فيه غلوٌّ وتجريحٌ وإهانة لعموم النساء؛ لأنه يتعارض مع النصوص الكثيرة التي تناولت حياة الصحابيات

(١) يُنْظَر: المرأة في القرآن، تأليف عباس محمود العقاد صـــ٧-١٥.

ولم تنسب إليهن مكرًا أو خديعة أو التواء، ويخالف الواقع المشاهد بين أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا.

من هنا كان لا بد من إعادة الجملة إلى سياقها، واستحضار جميع النصوص النبوية التي أشارت إلى خلق المرأة من ضلع، والنصوص هي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)، رواه البخاري، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك علي طريقة)، فإن استمتعت بها، استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرُها طلاقها، رواه مسلم.

فالحديث بسياقه النبوي يؤكد العناية النبوية بالمرأة، ويضع المنهج القويم في التعامل معها، إذ يحدد الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث طبيعة المرأة، ومواطن ضعفها وسبب تصرفاتها، ثم يرشد الرجال إلى كيفية التعامل مع تلك الطبيعة، كل ذلك في كلمات وجيزة، يوضح فيها خصوصية خلق المرأة، وطبيعتها وفطرتها؛ ليكون الرجال علي بينة من طبيعتها عند التعامل معها، فلا يتعاملون معها علي أنها رجل مثلهم، فمن الظلم البين التعامل مع المرأة علي أنها مثل الرجل تماما؛ لأن طبيعة المرأة طبيعة عاطفية وانفعالية، تميزت بتلك الطبيعة بسبب ما تمر به من فترات حيض وحمل وولادة ونفاس ورضاع، وكلها تغيرات هرمونية تأثر علي الحالة المزاجية للمرأة، تجعلها سريعة الانفعال والغضب، فحث النبي صلى الله عليه وسلم الرجال على الصبر على تلك الطبيعة، لأن المرأة لا تتعمد ذلك ولا تقصده، ولتأكيد هذا المعنى الذي يقصده الرسول صلى الله عليه وسلم ختم كلامه بالوصية مرة أخرى، حتى لا

ينسى الرجال تلك الطبيعة، وطريقة التعامل، فيحسنوا معاشرة النساء، ويرفقوا بهن، وبالتالي تحفظ الأسرة المسلمة من الانهدام والتشتت.

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين في هذا الحديث مجال هذا العوج، إنما أشار إلي أثر العوج الخِلْقي في بعض سلوك المرأة مما يضيق به الرجل، ويمكننا بناءً علي الواقع المشاهد أن نفسر العوج بسرعة الانفعال وشدته أو بفرط الحساسية أو بتقلب المزاج، والمرأة تغلبها العاطفة فتفوتها الحكمة في اتخاذ قرار أو يكون منها ما لا يَجْمُل من قول أو فعل، وقد ينتج من سرعة انفعالها تقلب في المزاج، هذا التقلب يكدر خاطر الرجل ويثير غضبه، فالحديث وإن كان لم يبين مجال العوج لكن فيه توجيهٌ للرجل إلي الصبر على ما يصدر من المرأة من سلوك مبعثه ذاك العوج، يتمثل في قوله صلى الله عليه وسلم: "وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرُها طلاقها[1]"، وفيه إعلامٌ للرجل بأن المرأة لا تتعمد هذا السلوك لمضايقته وإحراجه، إنما تسلك ذلك المسلك نتيجة ما قدره الله عليها من طبيعة خاصة تتميز بسرعة الانفعال وشدته، وفيه تحذيرٌ للرجل بأنه إذا حاول الوقوف عند كل خطأ من زوجه نتيجة انفعالها البالغ مؤاخذا ومعاتبا، فلن يسفر ذلك عن شيء سوي مزيد من التباعد والشقاق، حيث يقع الفراق والطلاق.

٤-جملة: (النساء أكثر أهل النار).

اجتزأ بعض الخطباء جملة « ورأيت أكثر أهلها النساء» من سياقها النبوي، اجتزءوها ليحكموا على جنس المرأة بالسوء والشر وكثرة العصيان، والتمرد على حق الزوج مما يؤدى إلي دخولها النار، ويرفعوا هذه الجملة في

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك علي طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرُها طلاقها) (رواه مسلم).

وجه أية امرأة مسلمة- مهما كان حالها -كسوط تذكير بنهايتها المؤلمة، وهذا الكلام غير دقيق؛ لأن الجملة في سياقها النبوي الشريف لا تعني اتهاما لجنس المرأة ذاته، للأسباب التالية:

- لأن الجملة خبَرٌ يقرر صفات أهل النار من النساء، وليس صفات النساء عموما، ولأن الذي رآه الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل النار وأكثريتهم نساء لا يخص نساء المسلمين وحدهم، بل يشمل نساء كل الأمم السابقة، ومعلوم أن أمة الإسلام هي أقل الأمم عددا وعمرا، لذلك بالغ في نصيحة النساء المسلمات بالبعد عن الصفات المؤدية لدخول النار، ككفران العشير وخلافه، كما أن الروايات الأخرى التي وردت في نفس مضمون الحديث توضح أسباب دخول النار، فعن أبي سعيد الخدري: (يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار)، فقلن: بم يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن وتكفرن العشير)، فإن اللعن من الذنوب المحرمة التي حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منها، لأنها من أسباب دخول النار لعظم ذلك الذنب الذي لا يلتفت له كثير من الناس خاصة النساء[1]، وأما كفران العشير فهو من الأمور المشاهدة عند كل النساء المسلمات وغيرهن، حيث يغلب عليهن الانفعال والتسرع في إصدار الأحكام ونسيان المعروف والإحسان والعشرة الطيبة أمام أول خطأ من جانب الزوج، ولكثرة هذا الأمر وشيوعه بين النساء، وكان هذا الحديث من أعظم الأحاديث رعاية وعناية من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم بالنساء؛ إذ يلفت انتباهها لأمر من أسباب هلاكها، يلفت انتباهها إليه حتى تجتنبه، ويلقى لها في الحديث أيضا طوق النجاة إذا ما أتت بما نهاها عنه، حيث دلها على طريق الصدقة والاستغفار بقوله: (تصدقن وأكثرن من الاستغفار).

---

(١) فعن أبي زيد ثابت بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن المؤمن كقتله).

- ولأن سياق الحديث وسبب وروده كان متعلقا بكسوف الشمس على عهد رسول الله، فعن عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسُ مَعَهُ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا قَدْرَ نَحْوِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدِ انْجَلَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: " إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَفَفْتَ،قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ)، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (بِكُفْرِهِنَّ)، قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ، قَالَ: (يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ)[1].

فالحديث مساق للكلام عن كسوف الشمس على عهد رسول الله، وليس عن مصير النساء في الآخرة.

(١) رواه البخاري (١٠٥٢) واللفظ له ومسلم (٩٠١).

نتائج البحث وتوصيته

انتهى البحث إلى النتائج التالية:

١- لألفاظ القرآن وجمله دلالاتٌ ذاتُ وضْعٍ خاص، دلالاتٌ نابعة من السياق القرآني؛ لأن السياق القرآني منح اللفظ العربي امتدادا في المدلول بصورة فريدة لم تشهدها أية لغة من لغات البشر.

٢- يقوم كثير من الخطباء- في العصر الحاضر- باجتزاء الجمل القرآنية أو اقتطاع الآيات من سياقاتها ومن دلالاتها القرآنية المقصودة؛ لاستخدامها بخلاف سياقها الداخلى فى النص القرآني، وهذا خَطَـأٌ كبير؛ لأنه يجعل الخطاب الديني يأتي على غير ما قصده الله تعالى، ولأنه يؤثر على وعى المسلم بحقائق الخطاب القرآنى والخطاب النبوي الأساسى الراجع إلى سياقات خاصة قصدها الله ورسوله.

٣- ما يفعله معظم خطباء هذا العصر من اقتطاع الآيات من سياقها- عن عمد - واستخدامها في غير مقاصدها، تترتب عليه أمور خطيرة، حيث يؤدي إلى تكفير بعض الناس بإنزال آيات الكافرين على المؤمنين، كما يؤدي إلى إنزال اللعنات على المقترض المحتاج وإنذاره بحرب من الله ورسوله بانتزاع آيات الربا من سياقها القرآنى.

٤- قد لا يكون اقتطاع الآيات من سياقها عن عمد، بل قد يكون عن جهل- والنتيجة كارثية أيضا، فالذين يخوضون فى السياق القرآنى دون امتلاك أدوات العلم الشرعى-كمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والسياق اللغوى والتاريخى الذى قيلت فيه النصوص القرآنية- إنما يشوهون الدين أيَّـما تشويه؛ لأنهم يتوجهون إلى النصوص الصحيحة فيقتطعونها من سياقها اللغوى ويفصلونها عن زمن ورودها وأسباب نزولها، ومن المعلوم أن ارتباط النص بسياقه ومعرفة سبب نزوله من أهم أدوات فهم المراد من النص، لذا، حين ينتزع أولئك الخطباء بعض النصوص من سياقها، جهلًا أو

عمدًا، لا سيما تلك النصوص المتعلقة بقتال المشركين، فإنهم بذلك يظهرون دين الإسلام كأنه دين دموى لا علاقة له بالسلم أو الرحمة، اللتين هما من أبرز دعائم شريعة الإسلام، ويُصبح المخاطَب أو المتلقي أمام شرعٍ متناقضٍ فى أحكامه وتوجهاته، وحاشا الإسلام أن يكون كذلك، فالإسلام هو الدين الذي يدعونا إلى السلام ويُعَظِّم من شأن الدماء، ويُسَوِّى في الإثم بين قتل النفس الواحدة وقتل الناس جميعًا، ويُبَيِّن أنَّ إحياء نفس واحدة يعدل إحياء النفوس جميعا، والكارثة الكبرى التي تترتب على جَمْع آيات القتال فى القرآن الكريم مقتطعة عن سياقها ومفصولة عنه هي أن المتلقي قد يفهم منها أن الإسلام يحض دائما على قتال المشركين، وقد يترتب على هذا الفهم جواز قتل الكثير منهم وربما قتلهم أجمعين استنادًا إلى نصوص دينية بَدَت- بعد بترها من سياقها – صريحةً فى الحث على القتل، وهذا لا يقول به إلا مغرض أو جاهل ينقضه الفهم الصحيح لشريعة الإسلام السمحة المنضبطة في التصرفات والمعاملات.

٥- ما يترتب على اقتطاع الآيات القرآنية من سياقها هو نفس ما يترتب على اقتطاع الأحاديث النبوية من سياقها، فعندما يتم بَـتْـرُ جُمَلٍ معينة من الأحاديث النبوية وفصلها عن سياقها، حينئذ قد يفهم المتلقي منها أن محمدًا نبيٌّ فظٌّ، غليظ القلب، يحض على القتل وسفك الدماء، ولا يهتم بالآداب الاجتماعية السامية، وقد يترتب على هذا الفهم المغلوط أمورٌ منكرة، لا ترضي الله ولا رسوله، كجواز قتل الناس استنادًا إلى نصوص نبوية بدت- بعد بترها من سياقها – صريحة فى الحث على القتل، وهذا أيضا لا يقول به إلا حاقد أو جاهل لا يفهم أخلاق رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم فهما صحيحا.

لذا، يوصي البحث بأن يقوم خطباء هذا العصر بتصحيح المسار المغلوط فى تناول النصوص الدينية، من خلال أمرين:

الأول: ربط النصوص القرآنية بسياقها اللغوى والتاريخى إن أرادوا حقًّا فهم الشريعة وتجديد الخطاب الديني، فمن الخطأ البيِّن اقتطاع الجمل من سياقها، ومن الفهم المغلوط عند استشهاد خطباء الإسلام بالنصوص الدينية أن يستحضروا آيات القتال عند الحديث عن المخالفين فى الدين، لا سيما عند الحديث عمن يشاركون المسلمين فى النسيج الوطنى.

الأمر الثاني: الحذر من اقتطاع أو اجتزاء النصوص النبوية من سياقها؛ لأن النصوص النبوية المجتزأة من سياقها هي من أبرز النصوص التي يستخدمها أعداء الإسلام في الطعن في شريعة الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم، فأعداء الإسلام ما قالوا: إن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد أهان المرأة وحكم عليها بنقص العقل والدين إلا بسبب اقتطاع الجمل النبوية من سياقها، وأعداء الإسلام لا يدخرون جهدا ولا وسعا في استغلال أي موقف يساعد على تشويه صورة الأمة الإسلامية تشريعيا واجتماعيا وثقافيا، لصد الناس ومنعهم من الدخول في هذا الدين الحق، وبث الفرقة ونشر الفتنة داخل الصف المسلم نفسه بتشكيك المسلمين في ثوابت دينهم، والغريب في أمر النصوص النبوية المجتزأة أنها نصوص نبوية صحيحة، ومنها ما يبلغ حد التواتر، ولم يطعن في صحتها أحد من أهل العلم، لكن اقتطاعها من سياقها جعل مضمونها يأتي متعارضا مع منهج الإسلام وقيمه، وجعل بعض المسلمين – بحسن نية – يحاول إنكار هذه النصوص، أو ردها أو تكذيبها من باب الدفاع عن الإسلام ورسوله، وذلك ما يريده أعداء الإسلام، يريدون من المسلمين التنكر لسنة نبيهم وتكذيبها وردها والبراءة من نسبتها للنبي، مما يمهد السبيل للتنازل والتخلي عن السنة النبوية كلها، بعد إثارة الشبهات والأباطيل حولها.

مراجع البحث

١- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر "د ت".

٢- أسباب نزول القرآن للإمام علي بن أحمد الواحدي ت٤٦٨هـ، تحقيق الأستاذ كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٣- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري المتوفى ٣١٠هـ، دار الفكر والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م.

٤- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى ٦٧١هـ، دار الشعب، القاهرة، "د ت".

٥- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، "د ت".

٦- حديث عن القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين، سلسلة كتاب اليوم الصادرة عن دار أخبار اليوم عدد ديسمبر ٢٠٠٠م.

٧- دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تأليف الأستاذ محمد المالكي، نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٨- صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، الدار الذهبية، القاهرة "د ت".

٩- صحيح مسلم، الدار الذهبية، القاهرة "د ت".

١٠- العُجاب في بيان الأسباب، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، تحقيق الدكتور عبد الحكيم الأنيس، دار ابن الجوزي ١٤١٨هـ.

١١- العربية لغة العلوم والتقنية تأليف دكتور عبد الصبور شاهين، دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
١٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه/ محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٣- لباب النقول في أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ /٢٠٠٢م.
١٤- مجاز القرآن، تأليف أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري المتوفى ٢٠٩هـ، تحقيق محمد فؤاد سزكين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى١٣٨١هـ.
١٥- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي، تحقيق الأستاذ أحمد صادق الملاح، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.
١٦- المرأة في القرآن، تأليف عباس محمود العقاد، طبع مؤسسة دار الهلال بمصر،"د ت".
١٧- مسند الإمام أحمد، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، طبعة مؤسسة الرسالة،١٩٦٩م.
١٨- المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفي ٥٠٢ه، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٩- مفردات القرآن: نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، تأليف عبد الحميد الفراهي المتوفي١٣٤٩هـ، تحقيق دكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، نشر دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى٢٠٠٢م.

* * *